

## ٧- عصر المرابطين

(٤٨٤ - ٥٤١هـ / ١٠٩١ - ١١٤٦م)

اندفع أبناء الصحراء<sup>(١)</sup> نحو الأندلس فى تيار متدفق وأقبلوا بوجوه ملثمة كأنما أرادوا ستر جهلهم كما قال شاعر أندلسي<sup>(٢)</sup>، أقبل يوسف بن تاشفين المرابطى إلى الأندلس بجمالته معه، فرُعب منها الأندلسيون، إذ لم يكونوا قد رأوها قبل ذلك، جمال فى إسبانيا! لقد تأفرق الأندلس، وأصبح ولاية تابعة للمغرب. وإذا كان قد أتيح له بذلك أن يقيم جبهته أمام النصارى ويثبتها، فقد اشترى ذلك بتضحية مثله العليا جميعاً. وإنه لأمرٌ لا يخلو من مغزى بعيد أن الذين خربوا مدينة الزهراء - والخلافة بعدُ قائمة - كانوا من براير المغرب.

كان يوسف - أمير المرابطين - لا يكاد يعرف العربية: حدث عندما جاز إلى الأندلس جوازه الأول مُعيناً لامراء الطوائف أن أنشده نفر من الشعراء شيئاً من شعرهم، فقال له المعتمد: «أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟» قال: «لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبز!»<sup>(٣)</sup>، ولما انصرف المعتمد إلى حضرة مُلكه، كتب له المعتمد رسالة فيها:

بِتُّمْ وِبِنَّا، فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا      شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا  
حَالَتْ بِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَفَدَتْ      سُودًا، وَكَانَتْ بِكُمْ يِضًا لِيَالِينَا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارى: «يطلب منا جوارى سوداً وييضاً؟»

(١) يشير بذلك إلى المرابطين.

(٢٤٢) أبو الوليد الشقنقى: «رسالة فى فضل الأندلس» فى نفع الطيب (طبعة أوروبا) ج ٢، ص ١٣٩.

قال: «يا مولانا، ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً لأن ليالى السرور بيض، فعاد نهاره بيّعه ليلاً، لأن أيام الحزن ليال سود» فقال: «والله جيد، اكتب له في جوابه أن دموعنا تجرى عليه، ورءوسنا توجعنا من بعده»<sup>(١)</sup>.

وبدا وكأن الشعر الأندلسي يلفظ آخر أنفاسه، كأن كيانه ناء بثقل النازلة، وانطوى على نفسه إلى حين، وانصرف نفر من أهل العناية والضبط إلى تخليد كنوز هذا الأدب الأندلسي وصيانة محصوله الزاخر من الضياع، ومن هنا كان هذا العصر عصر تصنيف مجموعات المختارات العظيمة «كالذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لأبي الحسن على بن بسّام الشنتريني (توفي ٥٤٢هـ / ١١٤٧م)، و«قلائد العقيان» لأبي نصر الفتح بن خاقان القلاعي (توفي ٥٢٩ أو ٥٣٥هـ / ١١٣٤ أو ١١٤٠م)، ولم يقتصر هذا الأخير في كتابه على إيراد أشعار الجليل الذي سبقه مضمنة في ثنايا تراجم شاعرية الصياغة مرسلة في أسلوب مسجوع يُتِيهِ الذهن في متاهاته، بل أورد كذلك أشعاراً لمعاصريه نُظِمَ الكثير منها «للقلائد» خاصة وأهدى بعضها لابن خاقان نفسه، فسبق ابن خاقان بذلك المحلّين فيما يطلبون من الدعاية لأنفسهم عن طريق تقارض الثناء.

بيد أن الشعر الأندلسي لم يمت في عصر المرابطين، وكل ما حدث أنه كيف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به. ولقد وجّه «دوزي» كراهته المتأصلة في نفسه لرجال الدين - أياً كانوا - نحو فقهاء عصر المرابطين، وأسرف في تعرية الأفارقة من كل ثقافة، واعتبر هذا الجهل المعول الذي هدم صرح الحضارة الأندلسية. ولكننا رأينا أن ثقافة إمارات الطوائف لم تكن من نسيج متين قادر على البقاء. ثم إن كل ما هو إنساني مصيره إلى زوال، وعلاوة على ذلك كانت سيادة المرابطين على الأندلس قصيرة العمر - نصف قرن أو نحوه - فلم يتهياً لها الاستقرار في الأندلس بصورة نهائية، ولم يقدر لها كذلك من فسحة الزمن ما يهذب من خشونتها، إذ كانت أشبه بثمر الحنظل. وكان المشرق إلى ذلك في انهيار متصل، ولم يعد له على الأندلس إلا ظل خفيف من سلطانه

(١) نفس المصدر السابق والصفحة. والبيتان المذكوران من نونية ابن زيدون المعروفة.

الثقافى الأول، بل حدث عكس ما رأيناه قبلاً من وفود المشاركة على الأندلس حاملين إليه ذخائر العلم والحضارة، واتجهت الآن موجة الهجرة من الأندلس إلى المشرق، وحملت موجات الهجرة معها إلى مصر والشام أعلاماً أندلسيين ذوى خطر (من أمثال أبى الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى وأبى بكر الطرطوشى). ولم يكن للشعر الأندلسى محيىص عن أن يضمحل ويعيش على ماضيه. بيد أنه من الإنصاف أن نقرر أن خلفاء يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الأندلسية القاهر، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسيين منهم إلى الأفارقة، فحفلت دواوين إنشائهم بالناثرين والكتّاب ممن تخلّفوا عن عصر الطوائف، ودخل فى خدمة المرابطين منهم نفر كبنى القبطورنه وأبى عبد المجيد محمد بن عبدون (توفى ٥٢٩هـ / ١١٣٤م)، الذين أكثروا من الشعر فى رثاء مجد بنى الأفتس أصحاب بطليوس الذهاب، ومن أشهر ما قيل فى هذا المعنى رائية ابن عبدون الذائعة الصيت، وإننا لنجد بين المتولّين لأعمال المرابطين نقرأ من أعلام الأندلسيين فى ذلك العصر كأبى بكر الصيرفى (توفى ٥٧٠هـ / ١١٧٤م) وابن عبد الغفور وابن الإمام وابن عائشة وابن أبى الخصال (المتوفى عام ٥٤٠هـ / ١١٤٥م)، وغيرهم كثيرين.

ونذكر من بين شعراء أهل نواحي الأندلس، ممن كانت لهم علاقات وثيقة بعمال النواحي - إلى جانب صلاتهم بالإدارة المركزية - أبا إسحاق بن خفاجة (٤٥٠ - ٥٣٣هـ / ١٠٥٨ - ١١٣٨م) وابن أخته: على بن عطية بن الزقاق (توفى ٥٢٩هـ / ١١٣٤م) وكانا من أهل «جزيرة شُقر»، وكانت لهما أسباب موصولة بالجيل الذى تقدّمهما، فأما أولهما فمن فحول شعراء الإسبان<sup>(١)</sup>، وقد طار صيته بما أنشأ من الشعر فى وصف الحدائق والرياض حتى لقد لُقّبَ «بالجنّان»، وهو فن من الشعر جودّه «المحدثون» من شعراء المشرق وبرع فيه الصنوبرى؛ وإن روضيات ابن خفاجة لتفيض عذوبة وجمالاً، وإنه ليصورها فى فن مصقول حافل بالمعاني، فتبدو وكأنها مشاهد من عالم الخيال أو مجالس أنس

(١) يريد هنا أن ابن خفاجة يعد من فحول شعراء إسبانيا عامة.

تدور فيها الأكواب، بيد أنه من المبالغة أن نذهب إلى أن روضياته كانت السابقة التي نشأ عنها أسلوبنا في فهم الطبيعة. وقد كان أثر ابن خفاجة عظيماً، وظلت «الطريقة الخفاجية» محتدة حتى أواخر أيام مملكة غرناطة. أما ابن الزقاق فيرجع سر براعته إلى الصور التي ابتدعها لصياغة التشبيهات القديمة - التي ملأها الناس لكثرة استعمالها - في قوالب جديدة، فتبدو وكأنها شيء جديد، وفي ذلك يقول الشنقدي مخاطباً أبا يحيى بن المعلم الطنجي: «وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجروا من سماع تشبيه الثغر بالاقاحى وتشبيه الزهر بالنجوم وتشبيه الحدود بالشقائق، فتلطّف لذلك في أن يأتي به في متزج يصير خلقه في الاسماع جديداً وكليله في الأفكار حديداً، فأغرب أحسن إغراب، وأغرب عن فهمه بحسن تخيله أنبل إغراب، وهو ابن الزقاق:

وأغيد طاف بالكنوس ضحى	وحثها والصبحُ قد وضحاً
والروضُ أهدى لنا شقائقه	وأسه العنبرى قد نفحاً
قلنا: وأين الاقاح؟ قال لنا:	أودعته ثغر من سقى القدحاً
فظل ساقى المدام يجحد ما	قال، فلما تبسم افتضحاً

وقال:

أديراها على الروض المندى	وحكم الصبح في الظلماء ماضٍ
وكأس الرياح تنظر عن حباب	ينوب لنا عن الحدق المراضٍ
وما غربت نجوم الأفق، لكن	نقلن من السماء إلى الرياض <sup>(١)</sup>

وكلا الرجلين - ابن خفاجة وابن الزقاق - يُعتبران الذروة العليا للشعر العربي القديم المحدث في الأندلس، ولا نجد بعدهما إلا تكراراً وانحداراً، مثلهما في ذلك مثل جنجره في الشعر الإسباني.

(١) أبو الوليد الشنقدي: «رسالة في فضل الأندلس» في «نفع الطيب» ج ٢، ص ١٣٥. وقد اكتفى غومس بطرف من هذا النص، واستغنى عن الشعر، فأتيت به على تواليه.

واجتهد نفر آخر من الشعراء - على عكس ذلك - في أن يتشبثوا بأذيال الزمن المولّى ليمدوا في أجله على غير جدوى، فمضوا ينتقلون من حلقة لأخرى، محاولين التكبُّب بشعرهم واسترجاع أيام الصلّات السنية التي ولّت مع أمس الدابر فلم يُغن عنهم ذلك شيئاً، وانقلبوا بحسرات وخيبة آمال عبّروا عنها في أبيات مجهّدة تنم عن حزن بالغ عميق، ونذكر من بين هؤلاء الأعمى التطيلي (توفى ٥٢٠هـ / ١١٢٦م)، وابن بقى (توفى ٥٤٠هـ / ١١٤٥م). وقد خلّف لنا هذا الأخير طائفة من أبداع أبيات النسيب، كقوله:

صَهَبَاءَ كَالْمَسْكَ الْفَتِيحِ لِنَاشِقِ	عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلُهُ
وَذَوَابِتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي	وَضَمَمَتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسِيفِهِ
زَحْرَحْتُهُ شَيْئًا، وَكَانَ مُعَانِقِي	حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سَنَةُ الْكُرَى
كِي لَا يَنَامَ عَلَيَّ وَسَادِ خَافِقِ <sup>(١)</sup>	بَاعِدْتُهُ عَنِّ أَضْلَعِ تَشْتَاقُهُ

وخلّف لنا كذلك طائفة من المدايح البارعة صوّر لنا فيها حاله أدق تصوير وأحسنه، وكان يحلم بمجد يدركه بين أعراب الصحراء ويقول:

نَأَتْ، إِمَّا الْعِرَاقَ أَوْ الشَّأْمَا	وَلِيْ هِمَمٌ سَتَقْدِفُ بِي بِلَادَا
بِهِمْ، وَأَجِيدُ مَذْحَهُمُ اهْتِمَامَا	وَالْحَقُّ بِالْأَعْرَابِ احْتِلَاءَا
بِوَادِي الطَّلْحِ أَوْ وَادِي الْخَزَامِي <sup>(٢)</sup>	لِكَيْمَا نَحْمَلُ الرُّكْبَانَ شِعْرِي

ولكن اليأس لا يلبث أن يغلبه على أمره، وينفذ صبره ويقول شاكياً:

لَهَا مِنْ أَبِيهَا الدَّغْرِ شِيْمَةٌ ظَالِمٌ	إِلَى اللَّهِ أَشْكُوها نَوَى أَجْنِيَّةٌ
--	---

(١) المقرئ: «فتح الطيب»، ج ٢، ص ١٣٥.

ولم يورد المؤلف الأبيات في سياق كلامه، وإنما أشار إلى رقمها (٥٩) بين المختارات التي أوردها فيما بعد.

(٢) ابن خاقان: «قلائد العقبان»، ص ٣٢٥ المقتوعة الأخيرة، ولم يترجم المؤلف في نصه إلا البيت الأخير.

إذا جاش صدر الدهر بي كنت مُنجداً  
 وإن لم يجش بي كنت بين التهائم  
 أكلُ بني الآداب مثلي ضائع؟  
 فأجعل ظلمي أسوة في المظالم  
 سنبكى قوافي الشعر ملء جفونها  
 على عربي ضاع بين أعاجم<sup>(١)</sup>

وهؤلاء الشعراء المحدثون أنفسهم - الذين ما كانوا لينظموا أزجالاً وموشحات في المناسبات الحافلة لو أنهم عاشوا في زمان آخر - وجدوا أنفسهم الآن مضطرين إلى استعمالها، ذلك أنه ظهر في أوساط معينة خلال ذلك العصر المرابطي - الذي هبط الذوق فيه هبوطاً بالغا - الميل إلى كل ما هو شعبي سوقي خال من الحشمة والتوقر، وقد كانت هذه النزعة أشبه بثورة على القوالب المتكلفة التي كان الأرسطراطيون المتزمتون يلتزمون بها ويحرصون عليها، وكانت في نفس الوقت دليلاً على غلبة ذوق العوام، ومن ثم كان هذا العصر عصر الهجاء اللاذع والسخر العنيف، عصر المتحررين والمُجان من الشعراء، وعصر كبار الزجالين كذلك. وقد عرف المحدثون من شعراء بغداد، هذه النزعة أيضاً، وكما رأينا الصنوبري يُبعث من جديد في شعر ابن خفاجة، نجد تبذلُ ابن حجاج يترأى لنا هنا وهناك في النوادر والطرف التي تحكى عن نزهون بنت القلاعى الشاعرة الغرناطية وأبى بكر الكتندى والأبيض وأبى بكر المخزومي الأعمى، ونراه بوجه خاص فيما يحكيه ابن قزمان وما يحكى عنه، وديوان أزجال ابن قزمان<sup>(٢)</sup> يعتبر طرفة ممتعة، وجرأة تجرح احتشام المتوقر ومعضلة يجتهد في حلها علماء عصرنا. ولستأ ندرى على وجه التحقيق إن كانت هذه الأزجال قد أنشئت لتُشد على الناس في صوت مسموع على قوارع الطرق، أو كتبت ليتهاذاها أهل الظرف والمتحررون في مجالس أنسهم. ومهما يكن من الأمر فهي أشعار مفحشة عابثة مجردة عن الحياء، فيأضة بالمجون والتصغيرات، مرسلة في غير تحفظ في

(١) ابن خاقان: «قلائد العقيان»، ص ٣٢٣، المقطوعة الأولى، ولم يترجم غومس إلا البيت الأخير.  
 (٢) توفى سنة ٥٥٦هـ/ ١١٦٠م أو ٥٦٥هـ / ١١٦٩م. والأزجال موشحات تصاغ في اللغة الدارجة، ولم نورد نماذج منها في كتابنا هذا لبعدها عن الشعر الفصيح العرب. المؤلف.

عبارات متقطعة غير متصلة المعانى أو السياق، وهى على كل حال إذا قورنت بأدب المجالس المهذبة المصقولة تجلت لنا حقيقتها: «صوت فى الطريق»<sup>(١)</sup> وهى أقرب بكثير إلى الروح الإنسانى من الشعر الفصيح المعقد الذى يبدو وكأنه معادلات جبرية.



---

(١) يشير المؤلف هنا إلى تسمية ابتكرها هو لابن قزمان وأزجاله، وقد كتب فى ذلك بحثاً مشهوراً بين أيدى دارسى الأدب الأندلسى هو Aben Guzman, una voz en la calle نشره فى صحيفة Cruz y Raya (= «زائد وناقص» أو «له وعليه») عدد ٣، مدريد، مايو ١٩٣٣م، ص ٣١-٥٩ وأعاد نشرها فى كتابه: Cinco poetas musulmanes (Madrid 1944) pp. 142-166 والشعراء الخمسة الذين درسهم فى هذا الكتاب هم: المتنبى، وأبو مروان «الأمير الطليق»، وأبو إسحاق الإلبيرى، وابن قزمان، وابن زمرك.